معركة وادي المخازن ودور العلماء فيها

بقلم الاستاذ يوسف الكتاني

في تاريخ كل أمة من الأمم ذكريات شهيرة وأحداث خالدة تقف عندها وتحيي أيامها لتذكرها بأمجادها وسيرتها وتقويها في مسيرتها ، وفي حياة كل شعب من الشعوب معالم بارزة ومواقع كبيرة يعتبر بها ويتعلم منها ويستمد من نتائجها وعبرها ما ينير له سبيل النضال والكفاح .

وفي تاريخنا المغربي الحافل ذكريات عظيمة ومعالم خالدة وأيام مجيدة تطرز سطوره وتتوج هامته وتملأ صحائفه يحق لأمتنا أن تعتز بها وتفتخر بما حققته فيها من انتصار وفوز وظفر ووحدة ، ونجد على رأس هذه الأيام والمعالم معارك الزلاقة ووادي المخازن وأنوال وغيرها ، وكلها شاهدة على بسالة شعبنا ووحدة أمتنا ونضالها المستمر المجيد من أجل الذود عن حياض الوطن والاستماتة في سبيل وحدته والوقوف في وجه كل متآمر عليه متربص به ، واستجابة لدعوة كليتنا لإحياء ذكرى معركة وادي المخازن وتمجيدها بإصدار عدد خاص من مجلتها آثرت أن أقدم هذا البحث مساهمة منا في إحياء هذه الذكرى الخالدة .

أسباب المعركة ودوافعها :

تجتمع الأسباب الدافعة إلى معركة وادي المخازن كلها وتتركز في الروح الصليبية والاطماع الاستعمارية التي ظهرت بوادرها واتجهت نحو المغرب منذ حروب الاسترجاع في الأندلس ، حيث أخذت أغلب الدول الاستعمارية كالإسبان والبرتغال والإنجليز توجه سهامها نحو بلادنا وتتربص بها وتحيك المؤامرات وتبيت لها الدسائس ، وصفحات التاريخ مليئة بالهجمات المتوالية والحملات المتصلة على سواحل المغرب وموانئه قصد السيطرة عليه واتخاذه معبرا إلى افريقيا المسلمة .

لذلك ما انفكت كل من إسبانيا والبرتغال تهاجمان حدوده وتغزوان سواحله في حملات متواصلة وهجوم مستمر وخاصة على تطوان وطنجة والعرائش والمهدية . وقد ازدادت هذه الحملات واتصلت منذ النصف الأخير من القرن العاشر الهجري ، خاصة عندما كثرت خصومات القبائل في المغرب وتعرض أمنه للاضطراب بالإضافة إلى الرغبة الملحة للعثمانيين في ضم المغرب بعد انتصارهم في تونس ضد الإسبان وضمها إليهم .

أضف إلى هذه الظروف الدوليةوالأوضاع الداخلية النزاع الذي نشب بين السلطان أبي عبد الله السعدي وبين عمه أبي مروان عبد الملك السعدي والحروب والفتن التي قامت بينهما ، كل ذلك زاد من شره

المتربصين بالمغرب والطامعين فيه لغزو سواحله والاستيلاء على موانئه ، حتى إذا انهزم أبو عبد الله المتوكل في حروبه مع أخيه ، وعزله الشعب المغربي لخيانته وفراره وبويع المولى عبد الملك سلطانا على المغرب ، كان ذلك بمثابة الشرارة التي أوقدت نار الحرب وكانت السبب المباشر لمعركة وادي المخازن .

تاريخ وأحداث :

لم يكد أبو عبد الله ينهزم أمام عمه عبد الملك ويخلع من العرش حتى فر إلى الشمال صوب طنجة مخذولا مهزوما وأخذ يتصل بإسبانيا والبرتغال مستنجدا مستصرخا من أجل استرجاع ملكه والأنتقام لهزيمته ولكن هيهات .

أما إسبانيا فقد قدرت أمرها وخافت مغبة تدخلها وأعرضت عن الملك المخلوع ورفضت الاستجابة لطلبه وإن كان قلبها معه ضد المغرب ووحدته ، وأما البرتغال وملكها دون سبستيان ، فقد وجدت في طلب الملك المخلوع فرصتها المنتظرة ورغبتها المأمولة حيث قبلت نجدته وأجابت رغبته شريطة أن تكون لها سائر السواحل المغربية فوافقها أبو عبد الله المخلوع وابتدأ الاستعداد للغزو .

وهنا حاول الملك المخلوع أن يجد ذريعة لفعلته فوجه رسالة إلى علماء المغرب وأعيانه يؤاخذهم فيها على نقض بيعتهم له ومبايعة عمه من دونه وحاول تبرير لجوئه واستنصاره بالأعداء غير أن العلماء لقنوه درسا لا ينسى في جوابهم التاريخي الذي سنعرض له فيما بعد.

وفاجأ البرتغاليون المغرب بالهجوم السريع على السواحل وطنجة فبادر أهلها باستصراخ السلطان واستعجال قدومه فأمر بإعلان الجهاد المقدس في سائر أنحاء البلاد وكتب إلى سبستيان منذرا ومحذرا يقول :

« إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر إلى عدوة المسلمين ، فإن أنت ثبتت في الساحل إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي وشجاع وإن أنت هاجمت القرى والمدن التي في طريقك قبل أن يقاتلك أمير مثلك فأنت يهودي ابن يهودي».

وجمع المعتصم جيوشه المتحفزة وسط جامع المنصور وعقد لها الراية بعد أن ختم عليها حملة القرآن مائة ختمة كما ختم صحيح البخاري واتجه صوب الشمال حيث عسكرت جنوده بسوق الخميس على بعد ستة أميال من القصر الكبير وكتب إلى سبستيان متحديا مستدرجا ، وقد كانت جيوشه الضخمة يصحبها الملك المخلوع وبطانته قد عسكرت بالفحص مقربة القصر الكبير ، يقول المعتصم في رسالته :

«فإني قد جئتك من مراكش ورحلت إليك ست عشرة مرحلة وأنت لم تدن إلي مرحلة واحدة...».

وقد جازت الحيلة على سبستيان وجيشه فانتقل من معسكره إلى وادي المخازن فأمر الملك حينئذ بهدم القنطرة وقطع الطريق على جيش العدو حتى إذا تم ذلك انقض السلطان بجيشه العظيم على العدو في صفوف متراصة يتقدمها العلماء والصلحاء والمجاهدون وعلى رأسهم السلطان على محفته وهو مريض جدا ، وكان ذلك يوم الإثنين متم جمادى الأولى 986 الموافق 1978م ، ودارت بين الفريقين معركة حاسمة كان للإيمان فيها الدور الأساسي والأول ، وقاتل فيها المغاربة قتال الأبطال مستأسدين حتى امكنهم الله من عدوهم فتفرقت جموعه وولى أبطاله فارين هاربين وقتل سبستيان غريقا في الوادي كما قتل غريمه وحليفه المخلوع وغنم المسلمون الغنائم والأسرى مما لا يعد ولا يحصي ، وأعلن استشهاد أبي مروان المعتصم الذي كان توفي في بداية المعركة متأثرا بمرضه ، وحقق الله للمسلمين النصر الكبير في معركة لم تتعد يوما واحدا ، ومن أجل ذلك سميت معركة وادي المخازن بمعركة الملوك الثلاثة ومعركة اليوم الواحد إذ تحقق فيها للمغاربة من النصر السريع والعظيم ما حقق الله لنبيه ﷺ في معركة بدر الكبرى .

العلماء ودورهم العظيم في وادي المخازن :

يجمع المؤرخون والكتاب على الدور العظيم الذي قام

به العلماء في معركة وادي المخازن من حيث الوقوف في وجه السلطان المخلوع والرد عليه وإفحامه ، ومن حيث الدعوة إلى الجهاد والترغيب فيه وتحميس المسلمين إلى الاستشهاد في سبيل وحدة بلادهم ونصرتها ، كذلك موقفهم العظيم أثناء المعركة ومشاركتهم فيها فعليا واستشهاد بعضهم في صفوف المجاهدين، ويتخلص هذا الدور الرائد في ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : ويتمثل في الجواب العظيم والمفحم على رسالة السلطان المخلوع ومحاولته تبرير استنجاده بالعدو .

ذلك أن السلطان المخلوع لم يكد يتفق مع ملك البرتغال على غزو المغرب حتى كتب كتابا إلى العلماء والأعيان يؤاخذهم على خلعه ومبايعة عمه ويبرر استنصاره بالأعداء ضد المسلمين ، يقول في كتابه :

« ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين ، وقد قال العلماء أنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه» وتهددهم قائلا :

« فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله...الخ » .

غير أن العلماء تصدوا له ولرسالته ولقنوه درسا بليغا هو وكل من تسول له نفسه خيانة وطنه والاستنجاد بالعدو ، وفندوا أفكاره وأقواله الواهية وسجلوا موقفهم العظيم في هذا الكتاب الذي يعتبر وثيقة في تاريخ المغرب تحتاج إلى دراسة مستفيضة وعناية واهتمام ، وسأقتصر لضيق المجال على بعض فقراتها .

1) قال العلماء في جوابهم للملك المخلوع :

« وبعد ، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والأجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد بن مولانا عبد الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة ، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب ، قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب ولو رجعت إلى نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب ، فقولك : خلعنا بيعتك التي التزمناها وطوقناها أعناقنا وعقدناها فلا والله ما كان ذلك منا عن هوى متبع ، ولا على سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع ، وإنما ذلك منا على منهج الشرع وطريقه وعلى سبيل الحق وتحقيقه وسنشرح لك ذلك ونبينه ، ونسطره لك بالأدلة الشرعية التي ترقيه وتزينه ، نعم كنت سلطانا بما عقد لك والدك من البيعة ، وترك لك من الأموال والعدد والحصون مما لم ينهيأ لأحد من أسلافكم الكرام رضوان الله عليهم فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده ، حتى استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون برده ، وأسسوا لدين الله قواعد وأرقانا وملكوا من المغرب بلادا معتبرة وأوطانا ، فلما وصل ذلك إليك ألقت إليك العباد أعنتها وملكتك أزمتها غير مبدلين ولا مغيرين ولا باغين ولا منكرين إلى أن قام عليك عمك بحجته التي لا يمكنك جحدها حسبما ثبت كما يجب عقدها ، فخرجت مبادرا له بدفعها ، ولقيته بها وأنت واسطة عقدها وحامل راية عهدها ، وعمك في فئة لا يخطر على بال عاقل أن يقابل جندا من جنودك أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك ، فما هو إلا أن جرى القتال ، وحضر النزال ، رجعت على عقبك هاربا هروب مطرود بقصاص وجنودك تناديك ولات حين مناص ، فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها ، وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادوك : لمن تركتنا وإلى من تكلنا ؟ فلم تلتفت إليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الأموال والعدد الوافرة والرجال والأسوار المرتفعة المانعة ، والمدينة المشهورة الجامعة، فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد إلى الحريم والأولاد والطارف والتلاد ولا دافع عن الضعفاء والمساكين إلا الله تعالى قال في مثلهم : « ومن أصدق من الله قيلا » « لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » .

ثم يضيف العلماء في جوابهم قائلين :

وأما قولك في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت ان تسميهم بالنصارى ، ففيه المقت الذي لا يخفى ، وقولك رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله ، أحدهما كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم ضلال ، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله ، والثاني أنك استعنت بالكفار على المسلمين ، وفي الحديث أن رجلا من المشركين فيمن عرف بالنجدة والشجاعة جاء إلى النبي ﷺ ، فوجده بحرة الوبرة ، موضع على نحو أربعة أميال من المدينة ، فقال له : (يا محمد ، جئت لأنصرك) فقال له النبي ﷺ : « إن كنت تؤمن بالله ورسوله » فقال : (لا أفعل) فقال له عليه الصلاة والسلام : « إني لا أستعين بمشرك » .

وأخيرا يختم العلماء رسالتهم بقولهم :

ارجع إلى الله أيها المسكين ، وتب إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين ، ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وهذه نصيحة إن قبلتها ، وموعظة إن وفقت إليها ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام » .

الموقف الثاني : تعبئة الشعب المغربي ودعوته إلى الجهاد والترغيب فيه .

ذلك أنه بمجرد أن أعلن المعتصم الجهاد ضد الغازين بادر العلماء إلى الاستجابة والانضمام تحت لواء السلطان على رأس الجيش المغربي ، كما قاموا بحملة منظمة مركزة لتوعية المسلمين ، وتبصيرهم بالموقف وتحميسهم للجهاد وترغيبهم فيه ودفعهم إلى المشاركة في الحرب دفاعا عن بلادهم ووحدتها .

ويسجل التاريخ مواقف عظيمة للعلماء في معركة وادي المخازن خاصة في وقت الاستعداد للمعركة وقبل وصول السلطان إلى ساحتها ، وسأكتفي بموقف الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي رحمه الله وما كان له من أثر على أهل القصر الكبير عندما حوصروا من طرف العدو ودب الرعب إلى قلوبهم ونفوسهم إذ تحركت جموع العدو وباغثتهم وعسكرت بالفحص وكان السلطان لم يصل بعد فتخوف الناس لبعد الشقة بينهم وبين السلطان ولمباغثتهم من طرف عدو ماكر ، وحدثتهم أنفسهم بالفرار غير أن الشيخ أبا المحاسن — وقد كان بينهم — استدرك الموقف وبعث أصحابه لينادوا في الناس : « ..بأن ألزموا بلادكم ودوركم فإن عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجيء السلطان من مراكش وإن النصارى غنيمة للمسلمين ومن يشاء فليعط خمسين أوقية في النصراني... » .

وقد ارتاحت الناس إلى موقف الشيخ وندائه ورجعوا إلى هدوئهم وأنفسهم وأخذوا يستعدون للقاء العدو صابرين منتظرين حتى وصل ملكهم يعززه جيشه العظيم .

الموقف الثالث : مشاركة العلماء في المعركة وقتالهم فيها واستشهاد بعضهم فيها .

لم يقف دور العلماء في معركة وادي المخازن عند توعية الناس وتبصيرهم بالموقف وتحميسهم للمشاركة في محاربة العدو والجهاد في سبيل وحدة وطنهم ولا عند دعوتهم إلى الصبر والثبات عندما فاجأهم العدو بغزو بعض سواحلهم كما فعل الشيخ أبو المحاسن مع أهل القصر الكبير قبل أن يلحق بهم السلطان وجيشه ، بل إن موقف العلماء تعزز بمشاركتهم الفعلية في المعركة وحملهم السلاح إلى جانب إخوانهم المجاهين واستبسالهم في القتال واستشهاد بعضهم في الميدان ، وكان على رأس العلماء الشيخ أبو المحاسن الفاسي والفقيه السفياني وغيرهما .

وقد سجل هذه المشاركة الفعلية محمد العربي الفاسي في « مرآة المحاسن » بقوله : (كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين وأظنه الميسرة من عسكر

المسلمين في مقابلة النصارى دمرهم الله قال : فوقع في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم وحملت عليهم النصارى دمرهم الله فثبت الشيخ وثبت من كان معه إلى أن منح الله المسلمين النصر... » .

مكاسب المعركة ونتائجها :

لقد أحسن المؤرخون عندما شبهوا معركة وادي المخازن بمعركة بدر وذلك لأوجه الشبه الكثيرة التي تجمع بينهما ، فكما أن بدر بدأت بمفاجأة التعرض للقافلة وكانت بين طرفين غير متكافئين ، من حيث العدد والعدة وكانت المعركة قصيرة حقق فيها المسلمون أعظم انتصار في تاريخهم ، كذلك كانت معركة وادي المخازن من حيث مباغتة العدو بغزو السواحل وتكالب الصليبية وتجمعها لحرب المغاربة ، وإن المعركة لم تتعد يوما واحدا وكان انتصار المغرب فيها انتصارا ركز وحدة المغرب وهيبته ونفوذه في المجال الدولي .

لقد حققت معركة وادي المخازن نتائج عظيمة كان لها أعظم الأثر منها أن انتصار المغرب في المعركة هو انتصار للإسلام وتركيز لدعائمه في هذه الديار وفي افريقيا كلها خاصة وأن العدو دخل المعركة تحدوه أطماعه الاستعمارية ويوجهه ويحركه العداء الصليبي ضد الإسلام في هذه البلاد ، ولو انهزم المغرب في هذه المعركة لاكتسح العدو بلادنا ونصر أبنائها كما كان مبيتا ، من أجل ذلك كان إنتصار المغرب في معركة وادي المخازن انتصارا للإسلام .

وبانتصار المغرب في المعركة استرجع هيبته في المجال الدولي وفرض احترامه على جيرانه والمتربصين به ، إذ لم يكد يعلن الانتصار حتى سارعت الدول بإرسال وفودها وسفرائها تحمل الهدايا والتهاني ، وكان على رأس هذه الدول فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وتركيا وغيرها .

إن انتصار المغرب في وادي المخازن كبت أطماع تركيا وقضى على نواياها في الهجوم على المغرب وضمه إلى أمبراطوريتها ولذلك سارع السلطان التركي بمجرد انتصار المغرب في المعركة بإرسال وفد ضخم لتهنئة المنصور بالانتصار وتقديم الهدايا وطلب وده .

ومن أجل ذلك كله كانت معركة وادي المخازن معلمة خالدة في تاريخنا ركزت وحدة بلادنا واستقلالها وفرضت هيبتها ونفوذها ، كما كانت نقطة انطلاق نحو التقدم والاستقرار والعظمة .

مصـــادر البحـــث ومراجعـــه

— **المتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور** — احمد بن القاضى م خ ع 764 د
— **دوحـــة الناشـــر** — ابن عسكر فاس 1309
— **مرآة المحاســـن** — محمد العربى الفاسى — فاس 1324
— **تاريخ الدولة السعدية** — مؤلف مجهول — الرباط 1934
— **البـــدور الضاويـــة** — سليمان الحـــوات — م خ ع 261 د
— **نفح الطيـــب** — احمد المقـــرى — القاهرة 1369
— **مناهل الصفـــــا** — عبد العزيز الفشتالى — فاس 1324
— **الاستقصـــــا** — الجزء الخامس — الناصرى — البيضاء 1955
— **مجلة البينـــة** — السنة الاولى ع 4 — 1382 — 1962
— **المغرب فى عهد الدولة السعدية** — الدكتور كريم — البيضاء 1397—1977
— **المغرب عبر تاريخه** — المجلد الثانى ابراهيم حركات — البيضاء 1398 — 1978